انفجار في المطبخ

محمد سعيد المولوي - سورية

كان الفول النابت من أطيب الأطعمة إلي وأنا صغير، فإذا جاء العيد آخذ عيديتي وأخرج إلى السوق فأقف عند بائع الفول النابت لأشتري ملء صحن من الفول الناضج اللذيذ الذي كنت أرش عليه الكمون والملح، وأجد لذة وأنا آكل الفول حبة بعد حبة، وقد أزلت قشرتها.

وكان صوت بائع الفول وهو ينادي: "نابت نبت، استوى الفول يا أبي، كلاوي، الله يجيرنا من البلاوي! "يقع في أذني عذبا جميلا، فإذا أنهيت صحن الفول ملأ لي كأسا من ماء الفول المسلوق وصب فوقها الملح والكمون وعصير الليمون وهي ساخنة، فأشربها كألذ ما يكون الشرب.

هذا الحب للفول اتسع إلى حب الفول المدمس، وهو الفول المسلوق المضاف إليه مسحوق الثوم، وقطع البندورة، ومفروم البقدونس وقد غمره الزيت فبدا لامعا كالذهب.. كما اتسع إلى حب جميع أنواع أطعمة الفول. ولن تجد في الدنيا جماعة تفننت في طبخ الفول الأخضر على أشكال مختلفة كأهل دمشق، فهناك الفول المقلي والرز بالفول، والبرغل بالفول، والفولية، وشرحات اللحم مع الفول، والكبة اللبنية مع الفول..... إلخ.

وحين يأتي موسم نضج الفول الأخضر في شهر نيسان فالطعام السائد في دمشق هو الفول.. حتى إن أحد الأشخاص نزل ضيفا في هذه الفترة على أحد الدمشقيين وكان طعامه في كل يوم وعلى مدى عشرة أيام نوعا من طبخ الفول حتى صاح بمضيفه يا ويلتي والفول، إن كل خلية في بدني فيها قطعة فول!.

هذه العادة التي اكتسبتها وأنا صغير أيام العيد، كانت تراودني بين الفينة والفينة لأطبخ الفول النابت، وأجلس أتلذذ بأكله حبة حبة، وكنت وقد غادرت سن الطفولة والشباب لا أزال أحن إلى تلك الذكريات، فإذا جاء أحد العيدين كانت " طنجرة " الفول أهم القدور على النار، وقد بلغ الفول من نفسي مبلغا أن نظمت قصيدة فيه جاوزت سبعين بيتا.

على أن طبخ الفول النابت لم يكن في مواسم الأعياد فقط، بل كنت أدخر كمية كبيرة من الفول الكبير الجيد، وأعدها في رمضان فولا مدمسا، وهو الصحن الذي يكاد يكون حاضرا في كل عشاء أو أعدها في فصل الشتاء حين يحلو السهر ويكون الفول النابت أو الفول النابت المشوي هو أحد النقول التي نتسلى بها في الليل إلى جانب بقية المكسرات.

والآن وأنا حبيس الدار بسبب الجبس على يدي، عَنّ لي أن أسلق فولا نابتا، فأخرجت من المدخر بعضه، وغسلته، ثم نقعته في الماء لمدة يومين حتى انتفخت الحبات وانتبجت، وتغلغل الماء في خلاياه، فبدت وكأنها ناضجة وأصبحت جاهزة للسلق.

وأبى عليَّ كبريائي وأنا مع زوجتي في صدٍّ وردٍّ ودفع وشد في دخول المطبخ والتدخل في مسائله ولا سيما بعد صنع الحلويات "الكاتو" التي كانت فاشلة بإقراري واعترافي أمامكم وأمام جميع الناس والأشهاد إقرار عاقل مقر بخطئه. لقد أبى عليَّ كبريائي أن أقول لزوجتي: اسلقي الفول. ورحت أتحين الفرصة لتنفيذ ذلك، وحين قالت: إنها ذاهبة لزيارة أختها رحبت بذهابها، فقد سنحت الفرصة.

كاد صبري ينفد لولا أن سمعت صفق الباب، وتحققت من خروج زوجتي، وسارعت إلى المطبخ فأخرجت قدر البخار، وما كانت لي خبرة في استعمالها إلا نظرات عابرة كنت أرى زوجتي فيها وهي تستعملها، وغسلت الفول ووضعته في القدر، وقد بدأت بعض حباته تتقشر من طول ما نقعت في الماء. وصببت الماء فوقه، ثم أغلقت القدر وأنا مطمئن إلى حسن إغلاقها، ووضعتها على الموقد والنار من تحتها.

مضت فترة من الزمن حين بدأ البخار يتصاعد من منتصف غطاء القدر، وأسرعت فوضعت الكرة فوق الفتحة، فراحت تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال والبخار يصدر موسيقى عذبة، ولكن وبعد ما يقرب من عشر دقائق خفت صوت البخار وهدأت الكرة وصفيرها، وخفت أن تكون الفتحة التي يخرج منها البخار قد اندفعت فيها قشرة من قشور الفول فسدتها، وهي بذلك لا ريب ستنفجر وتدمر المطبخ، وأسرعت فرفعت القدر عن النار والبخار الذي يتصاعد منها خفيفا وجعلتها تحت صنبور الماء وأسقطت الماء عليها، ولم يمض إلا بعض دقيقة حتى توقف البخار عن الصعود، واعتقدت أن ضغط القدر انتهى، وأنه أصبح من الواجب علي أن أفتحها وأنظف فتحة البخار وأن أزيل القشرة منها.

أمسكت بساعد غطاء القدر وبَرَمْته حتى تحرر من قيوده.. ثم..ثم ماذا أقول.. ودوى انفجار كأنه انفجار قنبلة، وطار الغطاء من يدي، وتناثر الفول على رأسي ووجهي وكتفي وصدري ويدي، وعلى خزائن المطبخ وأرضه، ووصل إلى سقف المطبخ، واحترق جلدي حيث سقط الفول! ورحمني الله أني كنت أضع نظارتي فجاء الفول على النظارة ولو جاء على عيني لأحرقها وأورثني العمى!

غسلت وجهي ويدي وصدري بالماء، وأخرجت من الثلاجة بعض الثلج ورحت أدعك به مكان الاحتراق، ونظرت حولي، كان المنظر مدهشا، فإن أعظم فنان ما كان ليرسم تلك اللوحة التي رسمها الفول على خزائن المطبخ.

وأسقط في يدي، فكيف يمكن تنظيف الجدران والسقف؟! وحاولت قليلا فما أفلحت، وانسحبت إلى غرفتي أترقب مجيء زوجتي، حتى إذا سمعت الباب يفتح تهيأت للهزء والتقريع والتأنيب. ولما كان المطبخ بجوار باب البيت فقد مرت زوجتي به ورأت آثار العدوان، وحين دخلت غرفتنا نظرت في وجهي وصدري وساعدي ورأتها حمراء من أثر الحريق وقد ظهرت عليها فقاعات من الماء فسارعت إلي تحتضنني وتبكي. حينذاك علمت أن حبها لا يزال قائما، وأنها إنما كانت تدافع عن مملكتها، فقلت في نفسي: يا فرحي إنني متقاعد!! ■